مجلة الرائد

العدد : ٢٠٤ الموافق في رجب ١٤١٩ هجري ١٢ / ١٩٩٨ ميلادي

عنوان المقال : العولمة وصراع الهوية	بقلم : عبد العزيز بلحاج

اتسمت هذه الحقبة الأخيرة من التاريخ بسرعة التحولات وضخامة التقلبات التي تفوق في حجمها وحدتها ما حدث خلال القرون الماضية . ولعل السمة البارزة لهذه المرحلة ؛ هذه الثورة التكنولوجية والعلمية الهائلة التي أفرزت تحولات عميقة على الساحة العالمية ، وبالأخص ثورة الاتصالات والإعلاميات التي طوت المسافات بين أجزاء المعمورة وأزالت الحدود بين الشعوب والأمم ، وكذلك النمو المثير للشركات العالمية أو المتعددة الجنسية التي تجاوزت الحدود القومية وألغت الأعراف الدولية التقليدية... فتحولت الكرة الأرضية إلى قرية صغيرة تتأثر بعوامل مشتركة . ففي ظل هذه التقلبات العالمية لاحت في الآفاق مقولات عدة ؛ تؤذن بنهاية عصر العلاقات الدولية التقليدية والتكتلات الإيديولوجية أو القطرية ، وتوحي ببزوغ نظام عالمي أحادي... !!.

وتلاحقت هذه الشعارات ؛ فبعد النظام العالمي الجديد الذي جاء تتويجاً لاستفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة العالمية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي... ونهاية التاريخ لفرنسيس فوكوياما - المفكر الأمريكي ذو الأصل الياباني - الذي حاول الجزم بأن التاريخ سيتوقف عند الهيمنة الأمريكية باعتبارها ذروة الحضارات... وصراع الحضارات لصامويل هانتجتون أحد المفكرين والمنظرين للسياسة الأمريكية... ، أضحت العولمة في الآونة الأخيرة حديث الساعة لدى الجميع والكلمة الأكثر تداولاً في العالم ، وأصبحت الشغل الشاغل لكل الفعاليات الفكرية والاقتصادية لنقل التحديات التي تفرضها في أرض الواقع أمام الأمم والشعوب ؛ لما تشكل من مخاطر على الهوية والخصوصيات القومية والحضارية .

نشأة العولمة : العولمة أو الكوكبية ظاهرة حديثة انبثقت من روح العصر ، وهي تعني - بكل بساطة - تحول العالم أو كوكب الأرض إلى قرية عالمية صغيرة يحكمها نظام سياسي واقتصادي وثقافي... واحد وموحد .

وهي تتمثل في هذا التداخل الكثيف في العلاقات الدولية على مختلف المستويات ، مع تراجع ملحوظ لدور الدولة في ضبط تأثيراتها بالإجراءات التقليدية ؛ كقطع العلاقات الدبلوماسية أو المراقبة الجمركية أو إغلاق الحدود... ساعد على ذلك التطور العلمي الكبير في مجال الاتصالات والإعلاميات ، الذي يسر إمكانية الاتصال والتواصل بشكل كبير ومكثف بين شعوب المعمورة .

• فعلى **المستوى السياسي** تعتبر العولمة محصلة لتحولات السياسة العالمية ، فبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار القطب الشيوعي انتصبت أمريكا لتخطط لنظام عالمي جديد ، معتمدة في ذلك على تفوقها العلمي والاقتصادي والعسكري .

• وعلى **المستوى الاقتصادي** جاءت العولمة كنتيجة لظهور أساليب جديدة في التعامل التجاري بين بلدان العالم من قبيل ما يسمى بحرية التجارة وحرية الأسواق الاقتصادية ، وذلك عبر اتفاقيات الغات أو التكتلات التجارية العالمية ، والتي مكنت الشركات ورؤوس الأموال من الحصول على امتيازات وحريات غير محدودة على مستوى العالم .

• وعلى **المستوى الثقافي** تعتبر العولمة وليدة التقدم الهائل الذي حققته وسائل الاتصال والإعلاميات ، حتى صارت المعلومات تتناقل بكثرة وبسرعة مذهلة عبر العالم دونما عناء ومراقبة ؛ فالأقمار الصناعية قد اختصرت المسافات واقتحمت الحدود وغزت الشعوب في مواطنها بل الأفراد في عقر بيوتهم... ! وهذه شبكة المعلومات العالمية - الإنترنت - تصل الفرد بكل مكان وتجول به حول العالم في لمحة وجيزة... وهذه الصحون المقعرة المنتشرة بكثرة - لا سيما في بلداننا - تصل الناس عبر الأقمار الصناعية بالقنوات الفضائية والشبكات التلفزيونية العالمية والإذاعات... التي تملأ الجو...

كل هذا ساهم في احتكاك الشعوب ببعضها البعض وأماط اللثام عن الكثير من خصائص البلدان... مما يسر من نفوذ الثقافات الزاحفة .

فالعولمة إذن محاولة لدمج العالم وتوحيده سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

قراءة واقعية لظاهرة العولمة :

بعدما تعرضنا لنشأة العولمة وظروف ولادتها ، سنحاول إلقاء نظرة فاحصة على هذه الظاهرة باستنطاق الواقع لاكتشاف بعض الخبايا والحقائق التي تحملها في طياتها ، ومقارنة الشعارات بمعطيات الواقع .

فالعولمة في جانبها المثالي دعوة إلى إشاعة الأمن والرخاء وإفساح المجال للتنافس وتعميم مشاريع النهضة والتنمية ؛ وتدعو إلى تجنيد البشرية لمواجهة القضايا المشتركة كقضية المجاعة والفقر وقضايا حقوق الإنسان ومشكلات البيئة...

ولكن من يتأمل الواقع يجد بأن هذه الصورة المثالية للعولمة ليس لها وجود ! ويستحيل كذلك تحققها طالما المعايير الظالمة والخالية من الإنصاف مهيمنة في العالم ، وما دامت العقلية النفعية والاستغلالية

تحكم منطق القوى الكبرى .

ففي ظل العولمة السياسية ، اختلت الموازين السياسية في العالم ، وانتهكت القوانين الدولية وتحولت المؤسسات الدولية إلى أدوات لخدمة القوى الكبرى وقمع الشعوب المستضعفة . فبعد استفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالشأن السياسي العالمي ، فرضت نفسها وصية على العالم ، تقاطع هذا ، وتأمر بمحاصرة ذاك ، وتشن الحروب متى تشاء ، وتهدد... باسم الشرعية الدولية ومكافحة الإرهاب !! فضاعت الشرعية الدولية وضاعت حقوق الشعوب ، فانتشرت بؤر التوتر وكثرت الصراعات .

وفي ظل العولمة الاقتصادية أدت الاتفاقيات التجارية العالمية ، وفكرة إنشاء أسواق عالمية حرة... إلى فتح مجالات واسعة أمام الاستثمارات العالمية لتتخطى الحواجز القديمة وتسيطر على اقتصاديات الدول النامية ، مدعومة بالضغوط السياسية والعسكرية ، فتقلصت سلطة الدول في التحكم في اقتصادها وأسواقها المحلية ؛ وفتحت الأبواب على مصراعيها أمام المستثمرين والمضاربين الأجانب ، حتى صار بإمكان شخص واحد من أمثال المستثمر اليهودي الأمريكي جورج سوروس أن يتلاعب بعملات دول النمور الأسيوية ومصيرها . وذلك ما حدث لماليزيا ، والفلبين ، وتايلاند ، وأندونيسيا .

كما أدت العولمة الاقتصادية إلى القضاء على المقاولات الصغيرة والاستثمارات المحلية في الأسواق التي تكتسحها نتيجة آليات السوق الحرة وإلغاء الحواجز التجارية ، وعجز الشركات المحلية عن المنافسة المحلية أو العالمية في وجه المؤسسات العملاقة... الأمر الذي يؤدي إلى انهيار الإنتاج المحلي مقابل ازدهار الاستثمار الأجنبي .

والعولمة الثقافية كذلك لا تخلو من مخاطر لما ترمي إليه من تذويب الحضارات وصهر مقومات الشعوب وخصوصياتها الذاتية ، واستبدالها بثقافة عالمية موجهة من قبل القوى المهيمنة في العالم . ومن الناحية الثقافية أيضاً فإن زمام الضبط الفكري والتأطير الإيديولوجي بدأ ينفلت من يد الدولة بعد أن أصبح المواطنون على اتصال مباشر بما يموج بين العالم الخارجي من أنماط التفكير وأساليب الحياة. وهذه الثقافة التي يراد تداولها ليست ثقافة العلم والتكنولوجيا التي تحول الدول التي تكتسحها هذه العولمة إلى دول متقدمة ومنتجة ، بل هي ثقافة الاستهلاك والانقياد للنمط الغربي والأمريكي خاصة .

العولمة والرأسمالية : الرأسمالية منذ نشأتها نظام ذو نزعة توسعية وآلية للابتلاع والتوسع والنهب ؛ كلما حققت تقدماً وتطورت قوى الإنتاج ضاقت بها الحدود وسعت نحو الخارج للتوسع وتلبية رغباتها ، والعولمة تعتبر نتيجة لتطور الطموح الرأسمالي في الاستحواذ على العالم بأساليب عصرية

وجديدة وهي تمثل ذروة التاريخ الرأسمالي الذي يتم فيه اختراق الأسواق والعقول... وبما أن الرأسمالية الأمريكية هي الأقوى في هذا العصر فقد أصبحت في موقع الموجه لهذه الإيديولوجيات الجديدة .

فهيمنة أمريكا على العالم ، وسيطرتها على المؤسسات الاقتصادية الكبرى والتجارية العالمية ، وقيادتها لعلوم الاتصال والمعلومات جعلها في وضع المصدر للثقافة... ثقافة الاستهلاك فقط !!! فهي تصدر البضائع إلى الدول وتمنع عنها التكنولوجيا التي تصنعها ، وتقدم المساعدات المشروطة ، وتحاصر من يريد الاعتماد على الذات ، وتفتح مجالات واسعة أمام مؤسساتها الاقتصادية في حين تقوم بإفشال خطط التنمية والنهوض في دول عدة...

العولمة تفرض على الشعوب الانسلاخ عن هويتها الحضارية والارتماء في أحضان الثقافة الأمريكية الموجهة من قبل القوى الصهيونية والرساميل الجشعة وتحويلها إلى ببغاوات ومجتمعات مستهلكة . فالعولمة ليست إلا تعبيراً واضحاً لمحاولة أمركة العالم وجعله مشمولاً بسلع أمريكا وثقافتها .

إن العولمة وما تشكله من مخاطر على مستوى الذات والهوية لا تمس فقط الدول النامية ، بل إن الحكومات في الغرب تخشى على نفسها هذا الخطر القادم... فهذه فرنسا التي تخوض صراعاً ثقافياً كبيراً مع أمريكا وتنتقد بعنف العولمة الأمريكية . وتمتنع فرنسا كما تتحفظ كثير من الدول الأوروبية أثناء اتفاقية الغات عند البند الخاص بالمجالات الثقافية والإنتاج الإعلامي...

وأخيراً لم يبق لنا إلا أن نتساءل عن موقع المسلمين في وسط الصراعات والتحولات العميقة . الأمر الذي يجعلهم أمام تحديات مصيرية...